في ملحمة "حلوة" نجد مع العثمانيين

الموت فيها "ولا نجسٌ يدنسّها"

في الرياض عام (1837) كان العثماني إسـماعيل باشا الذي أُوكل إليه القضاء على السعوديين والإمام تركي بن عبدالله قبل اثني عشـر عامًا (1825) يجوب مجلسه غضبًا وغيظًا، وهو القائد المزهو بقوة دولته وامتدادها الجغرافي وإسـقاط الدولة السـعودية الأولى، ويلـوح بالبطش والقتل، وكان الصمت والاسـتغراب يُحيطان بمستشـاريه وكبار جيشـه، ويخيم على مقر القوات التركية الغازية

للجزيـــرة العربية لتغيير إمامها ولإعادتها إلى الاحتلال العثمانـــي، وذلك من خلال تعيين حاكم جديد لمنطقة نجد يتبع السلطنة العثمانية، ويخضع لها في كل تحركاته وشؤون حكمه.

ارتفـــع صوت القائد العثماني وســـط جنود حملته بكبرياء وعنجهية بعـــد أن قُرِئ له رد أهالي الفرع (الاســـم القديم لحوطة بني تميم جنوب الرياض) برفـــض الخضوع للجيش التركي والتبعية له ولسلطته ولعاصمته، فهاهم يصرخون في وجه التُّرك: "إن كان الأمر للترك فنحن لهم محاربون!" في إعلان صريح عن عدم الخضوع لكل ما هو تركي غريب على أرض نجد وسمائها.

هذا الرد الشـــجاع من بلدة صغيرة في وجه جيش قوامـــه (7000) جنديٍّ يجعلهم يزمجرون غضبًا، وهذا ما أودى بإسماعيل باشا إلى حالة من عدم الاتزان وقلة التدبير وزيادة التوحش، إذ تشرّب أوامر قيادته بإخضاع عـــرب الجزيرة العربية محاولاً إذلالهم وإهانتهـــم، وإعادة جريمة حرب الدرعية التي ليست من الإنسانية في شيء، فأمر الباشا على وجه السرعة الحدادين والصنّاع بعمل الفؤوس و(الفواريع)، وأمر الجيش بالاســـتعداد لغزو أهل تلك الناحية، ثم أرســـل إلـــى الأقاليم النجدية التي احتلها عنوةً يســـتلحقهم في جيشه لاجتثاث من يصفهم بالأشقياء العصاة، للتنكيل بهم واستحلال أموالهم وبلادهم.

في الجهة الأخرى، كانت مجالس حوطة بني تميم تناقش وتتداول بين كبارها الاســـتعداد ورد العـــدوان الذي يخطط له القائد العثماني وحماية الأرض والعـــرض، خاصةً أن ذاكرتهم لا تزال تحتفظ بكثير من قصص ظلم الأتراك ووقائعهم وجســـارتهم على المحرمات، وفتكهم بمن ينالون، ونقضهم العهود والمواثيق، وأشدها إيلامًا ما تحدث به النازحون إلى بلدتهم من أهل الدرعية الناجين من الغزاة الظالمين؛ لذا كان القول السائد الذي يتردد على ألسنة فتيان الفرع: "الموت فيها ولا نجس يدنّسها".

حـــزم أهل حوطة بني تميم أمرهـــم، وأجمعوا على الترتيب والتخطيـــط للمواجهة المرتقبة، فبدأوا بإرســـال "السُّـــبُور" العيون، يتتبعون أخبار الغـــزاة ويرصدون تحركاتهـــم وأعدادهم وعتادهم الحديـــث من المدافع والبنـــادق، وكانت المعلومات الواردة تتحدث عن مئـــات المقاتلين المدججين بالســـلاح يقطعون المســـافات والتضاريس متجهين إلى حوطة بني تميـــم (160 كيلاً عن الرياض) يتزايـــدون ولا ينقصون، كلّما مرّوا ببلدةٍ في طريقهم أمروا أهلها لينضموا إليهم ويخرجوا للقتال، لكن الأهالي في وادي الفرع استعانوا بالله العلي القدير، ثم رسموا خطة المواجهة المحكمة.

في الثامن والعشـــرين من ربيع الأول عام (1253هـ) الموافق (1837م) أمر إسماعيل باشا قواته بالتحـــرك قاصدًا حوطة بني تميم، ســـار يومه كاملاً من الرياض وبات ليلتـــه عند مياه "الجزعة"، وفي اليوم التالي وصل إلى "الحاير" وأقام فيه يومًا واحدًا ثم توجه إلى "السلمية" وبات فيها، ثم توجه منها إلى "الدلم" وأقام فيها عشـــرة أيام يتزود مع جيشه بالقمح والشعير، ثم توجه إلى"زميقة" وأقام فيها يومًـــا واحدًا ثم أتى المياه المســـماة "خفس دغرة" وأقام فيها ليلة واحدة، ثـــم عقد عزمه وتوجه إلى الحوطة، بعد أن أشار عليه أحدهم بغزو الحلوة أولاً .

وقبل وصول الغزاة بأيام قرر أهالي الحلوة بعدما علموا أنهم المستهدفون بالتحديد من قبل الجيش الغاشم، وبعد ما سمعوا كثيراً عما يقترفه جيش العثمانيين من جرائم وسوء، قرروا أن يُخفوا نساءهم وأبناءهم ومن ليس له قدرة على حمل السلاح والمواجهة في شعيب "مُطْعِم" الملاذ الآمن الذي لن يصل إليه أي مســـلحٍ تركي وفي الرجال البواســـل رمق، وبذلك تكون بساتين الحلوة وواديها ميـــدان المعركة المنتظر، ثم عمدوا إلى الآبار و"القلبان" مصادر مياه الشـــرب الوحيدة في المنطقة، فألقوا فيها عســـبان النخل والتِّبِن حتى لا يســـتفيد منها الغزاة، وأبقى أبطال الحلوة لهم موردًا مائياً معروفا اســـمه "عُسَـــيْلان" يشـــربون منه وحدهم، ولا يســـتطيع الغزاة أن يصلوا إليـــه، ثم وضعوا المتاريس في ســـفوح الجبال التي يتوقعون أن ينزل منها الغزاة البغاة المعتدون، ووزعوا المهام بعد أن أحكموا خطة الكرّ والفرّ والاســـتدراج، وحفروا خندقهم، مســـتعينين بالله ثم بعدالة قضيتهم في الوقوف ضد المحتل الغاشم.

وفي الســـادس عشـــر من ربيع الثاني من العام نفسه، وصل إسماعيل باشـــا بقواته التركية الغاشمة إلى الحوطة، وتجنب النزول من واديها في مقصده إلى الحلوة، فجعلها جانبًا وأكمل المسير إلى الحلوة، وكان تعداد أبطالها يومئذ مئتي رجل، ومعهم إخوانهم من بلدتي القويع والعطيان ولسان حالهم يقول:

أســرجوها فإنه يــوم فصـــل فيــه بالـريح نســتــفز الـجــيــادا
من لـــه كلـــــمة فليقـلـــها ساعة الحسم لو مضت لن تعـــادا
والرجـال الرجـــال أول صـــف يحصــد النصر من يخوض الشــدادا

أقبلت جحافل الأتراك يغشــاهم الكبر والخيــلاء والزهو بعددهم وعتادهــم، وفي الرابعة فجــرًا، كان الأتراك قد نصبوا مدفعيْن على رأس الجبل المُطِلّ على الحلوة، والجنود يحيطون بهما، ضربــوا مباني الحلــوة وأحياءها الآمنــة بالقنابــل، وبدأت معركة شــديدة الضــراوة أظهر فيها الســعوديون بسالةً وصبرًا وثباتًا أذهل الأتراك بادئ الأمر، استخدم فيها الأبطال كل ما يعرفونه من أســاليب الحرب، فاســتدرجوا الأتراك وانســحبوا إلى ســفح الجبل ووصلوا إلى باطن الوادي، لكن الأتراك ومن معهم لم يندفعوا إلى باطن الوادي، عاد الأبطال مرة أخرى إلى متاريســهم واســتأنفوا المعركــة من جديــد، وحين التحم الصفّان، تراجــع أهل الحلوة إلى الوادي ليســتدرجوا الغزاة من جديــد، فابتلع العثمانيون الطعم هذه المرة، واندفعوا للمطاردة في الوادي وداخل البســاتين في معركة حامية الوطيس، أشبه بحرب الشوارع والممرات، واشتد الأمر وأهل الحلوة في قتال عظيم معهم من طلوع الشمس إلى ما بعد الظهر.

قدِم أبطال الحوطة إلــى الميدان باذلين أنفســهم نصــرةً لجيرانهــم أهل الحلــوة بصد الأعــداء ومحاربتهم بــكل قــوة، فالمصير واحدٌ والوطن واحد. دخل قســم من أهالــي الحوطة ميــدان المعركة مشــاركين إخوانهــم التصدي للمعتدين، بينما تســلل قســم آخــر وصعدوا الجبل وعيونهــم على المدفع التركي الشــرس الــذي يلقــي قذائفه على بلــدة الحلــوة ملحقًا الأضرار بهــا وبأبطالهــا، لتدور معركة شــديدة بينهم وبيــن الأتــراك المدافعين عــن المدفع، يســتميت الأتــراك دفاعًــا عــن مدفعهــم، أما المهاجمــون مــن أهــل الحوطة فــكان همهم الاســتيلاء علــى المدفع ليخلصــوا إخوانهم من ضرباته، وبالفعل استطاعوا أن يلقوا بالمدفعيْن من أعلى الجبل، وبينما كانت المواجهة في أشــد أوقاتها، انهزم الجيش التركي وقتل منهم الكثير علــى أرض المعركــة الوطنية الشــريفة، وتفرق الباقون هاربين على الجِمَال، وقســم كبير منهم هــرب ناحية الصحــراء ليهلــك هنــاك في (أم العظــام) كما تذكر بعــض الروايات الشــفهية، فيلتحق أهل نعــام والحريق نازليــن مع الجبل الشــمالي بإخوانهم في المعركة، فتشتد عزيمة الأبطــال بنصــرة إخوانهــم، وتقــوى عزائمهم، ليلاحقوا فلول العسكر.

قتلوا
36% من الغُزاة الأتراك.

دفنوا
قتلى الأعداء بأخلاق النبلاء.

رأى إســماعيل باشا بعينه جنوده يتســاقطون ويتناثرون ويلوذون بالفرار، أيقن أن الهزيمة شــنعاء والفضيحة نكراء، فركب حصانه مع بقية رفقته القليلــة، ولاذ بالفرار، محملاً بالخزي والعار. وقد ذكر القائد العثماني المهزوم في تقريره العســكري الذي أرســله إلى قائده في المدينة المنورة مقتل (2488) خيّالًا وجنديًا، ولم يتبق منهم إلا (1688).

أشرقت على الحلوة شمس جديدة ويوم جديد معززة بالانتصار والعزة والكرامة، وذاع صيتها بين البلدان بطرد الجيش التركــي الحديث وإلحاق الذل به، ودحر مخططه الإجرامي، كيف لا؟! وهي حاضنة الخطوات الأولى لتأســيس الدولة الســعودية الثانية بقيادة الإمام تركــي بن عبدالله، فقد قدمت أُنموذجًا للولاء الوطني والدفاع عن الأرض.

"صفَّة" الروم
دُفن فيها "رماد" الغُزاة العثمانيين

هام الأتراك الهاربون من معركة الحلوة بعد الهزيمة على وجوههم في كل مكان، ولم ترحمهم رماح الأبطال وبنادقهم كلما وجدوهم، وكان آخر ســبعة منهم قد فرّوا إلى غار في عرض الجبل الجنوبي للحلوة، سمي هذا الغار فيما بعد بـ"صُفَّة الروم" تصغيرًا لمســاحته - والصفة غرفة صغيرة لخزن التمور، ولأن كل تركي كان يُنسب إلى الروم، وبقوا هنالك مختبئين فيه لفترة وجيزة، فإذا كان النهار سكنوا فيه حتى لا ينتبه إليهم أحد، وإذا جاء الليل تسللوا إلى المزارع يسرقون منها قوتهم.

وبعد أيام لمحت امرأة مــن أهالي الحلوة رجالاً يصعدون إلى عرض الجبل متجهين إلى ذلك الغار الصغير، تبعتهم بنظرها فرأتهم يستقرون داخله، عند ذلك أخبــرت الرجال الأشــاوس بوجود أولئــك الجبنــاء، فتداعى "حماة الــدار" وأخذوا أســلحتهم وتوجهوا إلى الغار، ثم وجدوهم هناك مختبئين، وبعد الاستقصاء عرفوا أنهم يســرقون وينهبون البساتين ويعتدون على الصغير والكبير لأيام عديدة، ولم يهربوا في حال سبيلهم ولم يســلموا أنفسهم ويطلبوا العفو، فتوصل الأهالي إلى فكــرة ترد الاعتبار إلى قتلــى المدافع من أهل الحلوة بعــد قناعتهم أن الجزاء من جنس العمــل، وحتى لايفكر بقية الجيش التركي المتناثــر في الاجتماع مرة أخرى للحــرب، فأغلقوا فتحة الغار من أســفلها، وجمعوا الحطب والحشــائش وألقوها عليهم من فتحة الغــار العلوية، ثم أوقدوا النار فيهم لتبقى بصمةً وشــاهدًا على محاولات المعتدين تدنيس هذه الأرض الطاهــرة، وليعلنوا ولاءهم للوطن وأئمته من أسرة آل سعود الكريمة وليقدموا نصراً ينضم إلى انتصارات بلدات أخرى من أجل الدولة الســعودية وترســيخ قاعدتها وقواعدها الإنســانية والحضارية ، لذا أسماها المؤرخ السعودي عثمان ابن بشر (توفي: 1873) في حينها بملحمة نجد الكبرى.

1) عثمــان بن بشــر، عنوان المجد فــي تاريخ نجد، تحقيــق: عبدالرحمن آل الشيخ، ط3 (الرياض: وزارة المعارف، 1974).

المراجع:

2) محمد بن بليهد، صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار، ط3، (الرياض: مرار للطباعة، 1998).

3) خالد الفرج، الخبر والعيان في تاريخ نجد، تحقيق: عبدالرحمن الشقير (الرياض: مكتبة العبيكان، 2000).

4) عبدالله البسام، علماء نجد خلال ثمانية قرون، ط2 (الرياض: دار العاصمة، 1999).

5) خليفة المسعود، "خالد بن سعود وعبدالله بن ثنيان بين التأييد المحلي والدعم العثماني"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مجلد 24، ع. 93، (2005).